

النظور التاريخي للتعليم في مدينة نابلس من العهد العثماني حتى عهد السلطنة الفلسطينية

د. عفاف زيات

يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على مراحل تطور التعليم وأثره على الحياة الثقافية والفكرية في نابلس منذ العهد العثماني حتى عهد السلطنة الفلسطينية، ويبرز البعد التاريخي التعليمي الزماني لعاصمة جبل النار كي تبقى حاضره في الذهن العربي وليتعرف الجيل الجديد تاريخه الحضاري العريق وكنوزه الثقافية وأسهاماته في الحضارة العربية والإسلامية، كما يود البحث إبراز أهمية دور المؤسسات التعليمية في رفد الحياة الثقافية والحفاظ على التعليم النابلسي. وتأمل هذه الدراسة أن تسهم ولو بالقليل في إظهار أهمية نابلس الثقافية والفكرية والحضارية وسوف تبرز هذه الدراسة إلى أهمية دور المؤسسات التعليمية في إغناء الحياة الثقافية والفكرية لدى المجتمع النابلسي وشكلت نابلس سياجا ثقافيا معرفيا قدمت من خلاله الكثير من الإعلام في مجالات العلوم المختلفة.

المقدمة

نابلس مدينة قديمة عريقة بتاريخها الحضاري العلمي وتراثها الثقافي بناها الكنعانيون وهي إحدى أكبر المدن الفلسطينية سكانا وأهمها موقعا وهي عاصمة فلسطين الاقتصادية ومقر أكبر الجامعات الفلسطينية وتضم 56 قرية ويقدر عدد سكانها بقرابة 321,000. كانت نابلس وما تزال على الدوام قبلة للعلماء من مختلف المناطق المحيطة بها وبفلسطين عامة لقد كانت محطة للطلبة والعلماء الذين كانوا ستوافدون إليها طالبا لمختلف العلوم والآداب وخاصة علوم الفقه والدين وقد برع عدد من أبناء مدينة نابلس في مختلف ميادين العلم والآداب العلامة قدري طوقان والشاعر إبراهيم طوقان والشاعرة فدوى طوقان وشيخ المترجمين العرب عادل زعيتر.

وبالرغم من فترات المد والجزر التي مرت بها نابلس جراء الأوضاع الأمنية والسياسية المتقلبة التي تتسم بها فلسطين عموما إلا أنها حافظت على مكانتها المتقدمة ضمن أهم الحواضن العلمية في فلسطين بل إنه يمكن القول إن إيقاع النشاط العلمي في نابلس قد ازداد أضعافا عما كان عليه سابقا. وقد تجسدت هذه الحقائق بإحصائيات وأرقام نشرها الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني فقد بلغ عدد المدارس في محافظة نابلس في العام الدراسي 2009 إلى 258 مدرسة منها 217 مدرسة حكومية و 14 مدرسة تابعة لوكالة الغوث و 27 مدرسة خاصة حيث تمثل مدارس نابلس ما نسبته 13,9% من مجموع مدارس الضفة الغربية البالغ عددها 1848 مدرسة موزعة بين مختلف المحافظات.

كما بينت الإحصائيات أن عدد الطلبة في مدارس محافظة نابلس بلغ في نفس الفترة المذكورة 95,700 طالب يتوزعون على مختلف مدارس المحافظة التي نالت المدارس الحكومية

فيها حصة الاسد بحوالي 79390 طالبا تلتها مدارس وكالة الغوث التي تدرس حوالي 9489 طالبا ثم المدارس الخاصة التي يجلس على مقاعدها حوالي 6800 طالب وتعد نسبة الامية في محافظة نابلس متدنية قياسا بمحيطها المحلي والاقليمي اذ لا تتجاوز 4,7 %.

ومن حيث التحصيل العلمي لطلبة المرحلة الثانوية فقد احتلت نابلس مرحلة متقدمة حيث تعد نتائج امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة (التوجيهي) دليلا مشرفا على المكانة التعليمية المتميزة التي تحتلها محافظة نابلس اذ حصل العديد من ابنائها على مراكز متقدمة ضمن المراكز العشر الأولى على مستوى الوطن ومن ضمنها المركز الأول.

وتحضر مدينة نابلس اكبر صرح تعليمي على المستوى الفلسطيني ويتمثل في جامعة النجاح الوطنية التي تحتل المركز الأول اكاديما بين الجامعات الفلسطينية في حين حققت تقدما كبيرا على مستوى التصنيف العربي والدولي ويعود ذلك إلى التنوع في تخصصاتها وميادينها العلمية والانسانية كافة ، وتضم اكثر من 21,000 طالب يتلقون العلم والمعرفة في مختلف المجالات وازضافة إلى فان مدينة نابلس تضم مقرا رئيسا لجامعة القدس المفتوحة تم انشاؤه مع بداية تاسيس الجامعة عام 1991 وهو يقدم خدماته التعليمية لسكان محافظة نابلس ويحتضن ما يقارب 6036 طالبا وطالبة مسجلين في مختلف الكليات التي تدرس العديد من التخصصات وعلاوة على ذلك هناك ايضا عدد من المرافق التعليمية والكليات المتوسطة مثل كلية الروضة وكلية هشام حجاوي التابعة لجامعة النجاح الوطنية وكلية الحاجة عندليب للتكريض التابعة لجمعية الاتحاد النسائي العربي.

ومما لا شك فيه ان بلدية نابلس تقوم بدور حيوي وتسهم اسهاما واضحا في دعم المسيرة التعليمية في مدينة نابلس حيث تعد الرافد الرئيس في جذب التمويل اللازم من المخلصين من ابناء المدينة لتشييد المدارس الجديدة في المدينة وتمثل مساهمتها من خلال توفير قطع الاراضي او تقديم الدعم الفني والتقني بتوفير المهندسين والطواقم الفنية لانجاز اعمال البناء والتشطيب وقد بلغ عدد المدارس التي تم تشييدها ثلاثا وعشرين مدرسة خلال الفترة -2006 2010.

مشكلة الدراسة وأسئلتها :

من سمات المرحلة الراهنة انها المرحلة الاكثر اظلالا وتراجعا وتخلفا من كل ما سبقها من مراحل في التاريخ المعاصر والحديث وهي مرحلة تختمر فيها العوامل التي تدفع نحو تزايد الازمات اللاحقة على كل صعيد ، اذا استمر تقاعس قوى وعناصر النهوض والتغيير عن ادراك طبيعة التحديات التي نواجهها ، وفي هذا السياق فان التطور العلمي والبحث الخيث في العلوم والمعرفة يشكل واحدا من التحديات الاساسية الاستراتيجية وهو امر مرهون بتطوير النظام التعليمي ووقف هذا التدهور الذي تعرض له طوال سنوات الاحتلال والذي استمر في عهد السلطة الفلسطينية في ظل تفاقم حالات الفقر والبطالة والغلاء وتدهور مستوى الاجور والعديد من العوامل التي ادت إلى ارتفاع نسبة التسرب من المدارس وغالبيتهم ينتمون إلى اسر فقيرة ومععدة. باستقراء ما سبق يمكن تحديد مشكلة الدراسة بالسؤال الرئيس التالي:

ما التطور التاريخي للتعليم في مدينة نابلس من العهد العثماني حتى عهد السلطة الفلسطينية ؟
وينبثق عن السؤال الرئيسي السؤال الفرعي التالي :

ما واقع التعليم في المؤسسات التعليمية في مدينة نابلس من العهد العثماني لغاية عهد السلطة الوطنية الفلسطينية؟

اهداف البحث:

يكمن هدف هذا البحث في دراسة حياة نابلس الفكرية ومشهدها الثقافي في العصر العثماني حتى عصر السلطة الوطنية الفلسطينية من خلال دراسة الجوانب الثقافية كالتربية والتعليم والتي تشمل المدارس والعلماء والطلاب والمساجد وابرار جوهر المكتبات وحركة الترجمة ودورها في الحفاظ على التعليم النابلسي واغناء الثقافة في نابلس وتبسيط الضوء على المدينة التي عاشت اوج ازدهارها ومجدها على امتداد الحكم الاسلامي لها زهاء اربعة عشر قرنا. حظيت نابلس باهتمام حضاري وثقافي واجتماعي وسياسي وغيرها ورغم اختلاف الدوافع من زمن إلى آخر الا ان المدينة بقيت مسرحاً لاحداث عظيمة ما زالت موضع بحث وتقييم حتى اليوم وما زالت تنبض الحياة لم ينقطع ماضيها عن حاضرها.

اهمية البحث:

يعتبر التعليم من اكثر المؤثرات التي تساهم في تنمية المجتمع وتطوره لانه يقع على القطاع التربوي برمته رسالة اعداد الاجيال من القادة والمفكرين والمصلحين وعلماء المستقبل والباحثين الذين سيقودون دفة التغيير والامساك بناصية العلم والتقدم نحو مشروع التنمية الشاملة فان هذا البحث يساهم في توفير التعلم والتدريب المستمرين في اثناء الخدمة لمواكبة التطورات المتلاحقة في مجالات المعرفة ولتطوير الكفايات ورفع مستوى الاداء والانتاج بين العاملين والموظفين وعليه فان اهمية نتائج البحث تكمن فيما يأتي:

1. الاسهام في الحد من نزوح الطلبة إلى خارج الوطن من أجل التحصيل العلمي.
2. الاسهام في تكوين شخصية عربية ذات ثقافه تربوية متماسكة من خلال توحيد المفاهيم العلمية والثقافية.
3. ان تعمل مؤسساتنا التعليمية على تلبية احتياجات مجتمعنا وفق رؤى التحديث والتطوير حتى يتسلح المواطن الفلسطيني بالثقافة القادره على الصمود امام الثقافات البديلة وهذا يتطلب مزيد من التفاعل مع المجتمع من خلال التواصل مع مؤسسات المجتمع وقياداته وخبراته.
4. ان تهيم مؤسساتنا التعليمية على رعاية المبدعين من العاملين والطلبة وتحفزهم بوسائل مختلفة حتى يساهمو بفاعلية.
5. تكسب هذه الدراسة اهميتها من الاهتمام بالمدرسة كوحدة تطوير وتعطي اهمية خاصة لتفويض الصلاحيات وتمكين العاملين باعتبار هذه العملية من مفاتيح التطوير التربوي لتحقيق التنمية المجتمعية الشاملة.

منهج الدراسة:

سوف تتبع الباحثة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي القائم على مرحلة النقد والتحليل بعد جمع المادة والمعلومات التاريخية من مصادرها نظرا لملائمته لأغراض الدراسة.

المراجع

1. احسان الدين، أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح سعداوي، ط1، عمّان 1991.
2. إبراهيم الأسود، كتاب الرحلة الامبراطورية في الممالك العثمانية، تقديم خيرى الذهبي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2008.
3. زياد المدني، مدينة القدس وجورها 1830-1800، منشورات بنك الأعمال، عمّان 1996.
4. سهيل زكار، القدس في التاريخ من العصر المملوكي حتى العصر الحديث، الجزء 6، منشورات القيادة الشعبية الليبية، طرابلس، 2000.
5. شوقي شعث، القدس الشريف، تقديم خيرى الذهبي، وزارة الثقافة - مشق 2009.
6. عمر سعادة، فلسطين في التاريخ الإسلامي، دمشق، دار الفكر 2008.
7. عيسى القدومي، الأرشيف العثماني وكنوز تاريخ القدس في: المعارج (العدد 117) بيروت 2008.
8. كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، دار سطور للنشر، القاهرة، 1998.
9. كامل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، عمّان 1981.
10. محمد بهجت القبيسي، القدس مملكة السماء في: الوطن السورية دمشق، العدد (632)، 23/4/2009.
11. الموسوعة العربية، رئاسية الجمهورية، م15، دمشق 2006.
12. نضال علما، الترجمة الفلسطينية ومطابعتها المقدسية في: المعارج العدد (117) بيروت 2008.